

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحى في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

أثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحى في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

The impact of trips to Europe on the emergence of reformist thought
in the Maghreb countries During the 19th century AD

قندوز عبد القادر ، جامعة ابن خلدون -تيارت-الجزائر

abdelkader.guendouz1@univ-tiaret.dz

تاريخ قبول المقال: 24-02-2024

تاريخ إرسال المقال: 06-01-2024

الملخص:

بدأ اهتمام شعوب البلاد المغاربية والنخب خاصة باوربا منذ الحملة العسكرية التي قادها نابليون بونابرت على مصر 1798-1801 ، والتي صاحبها انتقال العلماء والباحثين والمهندسين الذين ابهرو المصريين والعرب بالعلوم والتطور العلمي الذي وصلت اليه اوربا آنذاك من جراء ما عرفت من نهضتها والثورة الصناعية، ورغم الإعجاب الكثير الذي نالوه، الا ان نظرتهم لكل ذلك كان يشوبها الشك والريبة كون الحملة أدرجت ضمن الصراع المسيحي الإسلامي في إطار الحرب الصليبية المستمرة على ارض المسلمين، ورغم ذلك فان هذه الحملة العرب يستفيقون على حقيقة النهضة الأوربية وحالة الجمود التي تكتنفهم، وتجلت الصورة بشكل أوضح مع الرحلات التي قام بها المغاربة نحو أوربا، حيث تشكل هذه الرحلات حلقة مهمة في فهم وتحليل الأفكار الغربية للمجتمعات الأوربية آنذاك، وتكشف عن موقف الفقهاء والمؤرخين المغاربة عن مدى استيعابهم للتحول الذي أحدثته مجريات الوقائع الحاصلة عندهم من تطورات علمية متسارعة، في وقت يمثل مرحلة زمنية هامة أيقظت أوربا من سباتها و وقعت البلاد المغاربية في القبضة الاستعمارية.

الكلمات المفتاحية: اوروبا ، الرحلات، الاصلاح، العلوم

Abstract:

The peoples of the Maghreb countries and the elites in particular began their interest in Europe since the military campaign led by Napoleon Bonaparte against Egypt 1798-1801, which was accompanied by the transfer of scientists, researchers and engineers who dazzled the Egyptians and Arabs with the sciences and scientific development that Europe had reached at that time as a result of its renaissance and the industrial revolution, and despite They received a lot of admiration, but their view of all of this was tinged with doubt and suspicion

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحى في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

because the campaign was included within the Christian-Islamic conflict within the framework of the ongoing Crusade war on Muslim lands. Despite this, the Arabs were waking up to the reality of the European Renaissance and the state of stagnation that surrounded them, and the picture became clearer. With the trips taken by The peoples of the Maghreb countries to Europe, these trips constitute an important link in understanding and analyzing the strange ideas of European societies at that time, and reveal the position of Moroccan jurists and historians regarding the extent to which they comprehended the transformation brought about by the course of events taking place among them in terms of rapid scientific developments, at a time that represents an important period of time. Europe was awakened from its slumber and the Maghreb countries fell into the colonial grip.

Key words : Europe, travels, reform, science

مقدمة:

إن دراسة التاريخ بإيجابياتها وسلبياتها تترك تحديات كثيرة أمام الشعوب إما بإحباطاتها أو آمالها وطموحاتها المستقبلية، خاصة إذا تعلق الأمر بتاريخ المنطقة التي ينتمي إليها الفرد لأنها تتطلب مراجعة الذات واستقراء العقل و المنطق، لتكوين فكرة عامة عن الواقع ولو في الماضي البعيد من اجل الفهم الصحيح والموضوعي لتكوين وبناء الذات والتعامل مع الآخر.

إن رحلات المغاربة إلى أوربا خلال القرن 19م تدخل ضمن هذا الإطار لأن الأمر يتعلق بمصير المنطقة العربية الإسلامية كلها، من اجل تصحيح العديد من المفاهيم وتغيير النظرة للآخر الذي هو أوربا القريبة جغرافيا منا، اذ نجدد من خلال ذلك أفكارنا ونعيد النظرة في أحكامنا على أنفسنا ومنجزاتنا وعلى المجتمعات الأخرى التي كان لها التأثير البالغ على مجتمعاتنا إما متحدين أو المعجبين أو ناقمين عليهم، وهذا ما سنحاول التطرق له من خلال بحثنا الى طرح اشكالية تأثير الرحلات نحو اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحى في البلاد المغاربية بالانتقال من مرحلة الذم وإضمار الكراهية الى مرحلة المدح والاعجاب و التحدي والاقتداء عبر فكر اصلاحي ينظر الى المستقبل ويحاكي التطورات الحاصلة في المجتمعات التي تعرف حوله تطورات في جميع الاصعدة .

إن ملاحظات ومشاهدات الرحالة المغاربة من علماء وفقهاء في القرن 19م للبلاد المغاربية توضعنا أمام البداية الصحيحة والمعرفة الجلية لفهم الغرب

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحي في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

الأوروبي ودراسة الآليات التي بها تحكم في شعوبنا لعقود من الزمن، ونستطيع من خلالها مواجهة التبعات النفسية على ذلك وإعادة صياغة مفهومنا للغرب الأوروبي، لقد تناول الكثير من المؤرخين في مختلف العصور الحديثة علاقة الشرق الإسلامي بالغرب المسيحي، كل حسب رؤيته وطريقة فهمه للأمر خاصة عند تناول الأحداث الكبرى التي غيرت من مجريات التاريخ، يعبرون عن آرائهم ونظرتهم للأمر لتلك الوقائع. فكما تناول الكتاب الأوروبيين العالم الإسلامي من شرقه إلى غربه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فكذلك تناول العرب والمسلمون الغرب المسيحي عبر كل مراحل وأحداثه المهمة.

المبحث الأول: بدايات ظهور الفكر الاصلاحي :

يعرف الفكر الإصلاحي بأنه تحريك العقل في تقبل الإنسان بما يحيط به والتكيف مع واقعه وتعديل سلوكياته ومفاهيمه تجاه ذلك أي هو إعمال العقل بالنظر والتأمل والتحميص للوصول إلى الهدف المطلوب، فالمراد به فرك الأمور وبحثها طلبا للوصول إلى حقيقتها، بمعنى تمحيص الأمور والتدقيق فيها رغبة للوصول إلى المطلوب¹.

والاصلاح جمع صلحاء وهو نقيض الفساد، أصلح الشيء بعد فساده أي أقامه². ومن هنا قمنا في هذا المبحث بالتنقيب عن بداية التأثير بالغرب من قبل علماء الجزائر وتونس والغرب من خلال رحلاتهم الى اوروبا من خلال حركة الانتقال والصورة الاولى لأوروبا قبل ذلك .

المطلب الاول: حركية الانتقال بين البلاد المغاربية واوروبا:

ان الارتباط الجغرافي بين منطقة شمال إفريقيا خاصة البلاد المغاربية الأربع ليبيا وتونس والجزائر والمغرب الأقصى واوروبا جعل الحركة والانتقال بين ضفتي المتوسط لا تنقطع مع مرور الزمن، إذ تمثل أوربا مركز تأثير مستمر على المنطقة، ابتداء من عهد النهضة الأوربية وما صاحبها من الأحداث خاصة الثورة الصناعية والثورة الفرنسية، كما هناك تداخل حتى في تكوين الفرد الأوربي والمغاربي من الناحية

¹ - مزنة بنت مزعل عبد الله العيد، حماية الإسلام للعقل وأثره في تحقيق الأمن الفكري، مجلة كلية الشريعة والقانون بتفهنها الأشراف-دقهيلة، مج17، ع1، ددن، 1436هـ، ص 3.

² - ابن منظور، لسان العرب، مج2، دار صادر للنشر والتوزيع، بيروت، دت، ص: 517.

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحى في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

الحضارية، وبالتالي هناك حركة انتقال دائمة بين الضفتين الشمالية والجنوبية للبحر المتوسط حتى بين الدول المغاربية ذاتها مما اكسبها ثقافة متشابهة، بوجود مراكز علمية مثل فاس وتطوان وتلمسان وقسنطينة وبرقة حتى نظرة الغرب إلى المنطقة كانت نظرة واحدة على أنها إقليميا واحدا في معاهدتهم المبرمة بينهما .

ومن الذين انتقلوا إلى أوربا وبالتحديد فرنسا في النصف الأول من القرن 19م نجد من طرابلس حسونة الدغيس قبل سنة 1826 وبعدها وهذا تاريخ استقالته من منصب وزير الخارجية، ومحمد بيت المال عام 1830 رئيس الوزراء الفرماثلية، ومن الجزائر حمدان خوجة الذي قام بزيارته لفرنسا عام 1820 وكذلك مولود بن عراش وزير الخارجية للأمير عبد القادر عام 1837 ، وصالح بن محمد العنتري ومجموعة من علماء قسنطينة وأعيانها عام 1844 ، ومن المغرب محمد بن عبد الله الصفار الذي بعثه السلطان المغربي مولاي عبد الرحمان سنة 1845 ومن تونس المشير احمد باي والمؤرخ ابن أبي الضياف والوزير خير الدين باشا عام 1846.

وفي النصف الثاني من القرن 19 انتقل علماء آخرون في إطار اكتشاف العالم الأوربي والاحتكاك بحضارته وعلومه ومنهم العمرؤاي 4 سنة 1859 والجعايدي 5 سنة 1876 والحاج المعطي بن عبد الكبير بن المدني سفير السلطان الحسن الأول إلى فرنسا سنة 1889 ، أما عن تونس فلقد انتقل محمد بيرم الخامس اعوام 1875-1876 والعلامة سالم أبو حاجب عام 1878 ومحمد بن عثمان السنوسي عام 1889 ، وعن الجزائر نجد سليمان بن صيام ومحمد السعيد بن على الشريف صاحب زاوية شلاطة ببجاية عام 1852 واحمد ولد قاضي سنة 1878 ، وعن ليبيا محمد بن عبد الجليل عام 1852 كل هؤلاء سجلوا ملاحظاتهم وشهاداتهم عن مشاهدتهم لجغرافية والمجتمع الأوربي واقتصاده وسياسته.

وقد نالت فرنسا النصيب الأكبر من تلك الكتابات من الجغرافية والسياسية وعادات شعبها وطريقة تفكيره دونوا كل ذلك بعناية وتمعن، وكذلك عن متاحف وأسماء الأعلام المتداولة من رجال الحرب والحكم والفكر، وكان للثورة الفرنسية

³ ودان بوغفالة، الثورة الفرنسية في الاستغرافيا المغاربية، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004، ص 15.

⁴ هو ادريس بن محمد العمرؤاي ت 1878 فقيه واديب مغربي له رحلة الى فرنسا اسمها "تحفة الملك العزيز بمملكة باريز"

⁵ هوايو العلا إدريس بن محمد الجعايدي أديب وفقيه كاتب وسفير السلطان مولاي حسن له رحلة سماها " تحفة الأحبار بغرائب الأخبار"

تثر الرحلات الى اوربا في ظهور الفكر الاصلاحى في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

ذات التأثير الكبير على القرن 19م نصيب كبير من كل تلك المدونات، وكل حسب نظريته وعلمه بمجريات الأحداث حيث استقوا معلوماتهم إما بالمشاهدة والمعاينة والرواية والسماع، وإما بقراءة المؤلفات الأوروبية كما هو الشأن مع خير الدين وبيرم الخامس في تونس وابن عودة المازري وحمدان خوجة في الجزائر وحسونة الدغيس في ليبيا أو الاطلاع على المؤلفات العربية الأولى كرحلة تخلص الإبريز في تخلص باريز للطهطاوي ورحلة كشف المخبأ عن فنون أوربا للشدياق والتي يقارن فيها بين لمجمعين الفرنسي والانكليزي⁶.

المطلب الثاني: صورة الغرب عند المغاربة قبل النصف الثاني من القرن 19:

لقد ارتبط موقف الفقيه أو المؤرخ المغاربي من الأفكار حول أوربا وأحداثها من وجهة نظره الخاصة حسب فهمه وتكوين ثقافته الذاتية، خاصة منها الدينية التي ترى في الغرب المسيحي عدوا أزليا لشرق المسيحي، هذه الكتابات المغاربية تشكل حلقة مهمة في فهم وتحليل الأفكار الغربية للمجتمعات الأوروبية آنذاك، إذ تكشف عن موقف الفقهاء والمؤرخين المغاربة عن مدى استيعابهم للتحويل الذي أحدثته مجريات الوقائع الحاصلة عندهم ، إذ كان موقفا موحدا في صورته مختلفا في تفرعاته حسب اتجاهات الفقهاء والمؤرخين خاصة في بداية ومنتصف القرن 19م ،الذي يمثل مرحلة زمنية هامة أيقظت أوربا من سباتها و وقعت البلاد المغاربية في القضية الاستعمارية بدا من الجزائر وانتهاء بتونس، كما شهد حركة رحلات نحو أوربا منقطعة النظير خاصة نحو فرنسا مما سمح بوجود كتابات تحدثت عن أحداثها آنذاك خاصة منها تأثيرات الثورة الفرنسية وما صاحبها من تغير في ذهنية الأوربي من خلال تداوله لأفكار الحرية والعدالة والأخوة.

إن أهم ما يميز الكتابات التاريخية المغاربية خلال النصف الاول من القرن 19 التشابه الكبير بينها والتواصل مع ما سبقها من كتابات تاريخية، وذلك من حيث طبيعية المواضيع كتدوين التاريخ المحلي بالترتيب الكرونولوجي وتداخل المضامين الأدبية والفقهية مع التاريخ والجغرافيا ، أو محلية إسقاط الأحداث في أوربا على المستوى المحلي من نبذ المعارضة وتأبيد الحكم القائم، وكذلك النظرة العدائية للنصارى على أنهم كفار والاعتزاز بالدين الإسلامي على انه حل للشعوب على مر الزمان.

إن نظرة غالبية العلماء والمؤرخين المغاربة الأوربيين خلال القرن 19 هي نظرة تاريخية ضاربة في الجذور إذ هي استمرارية لرؤية السابقين خاصة في فترة الحروب الصليبية، وذلك من خلال ورود

⁶ ودان بوغفالة، المرجع السابق، ص 16 .

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحي في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

مصطلحات ومفردات ضمن تلك الكتابات تتعت الأوربي بها مثل الأوربي عدو نصراني كافر أو نجس ملعون ضال لا يترجى منه خير، ولا يجوز الاستعانة به، والملوك هم طواغيت وتراث المسلمين هو سبب نهضتهم وهم مدينون له سلبوا منا الأندلس.

فلقد بالغ ابن سحنون الراشدي في نظريته الاستعلائية إلى درجة احتقار الأوربيين وعدم الاعتراف بعلمهم، ونعتهم بالجهلة للتاريخ وانحراف في العقيدة وتسلبت للرجال الدين "والجهلة المراد بهم النصارى لاشك أنهم اجهل الجهلة لاسيما في الاعتقادات، وفي جهلهم بالتاريخ وكذبهم... ومن مارسهم واطلع على خبيث تديناتهم رأى من ذلك الخرافات الهذيانة والخزعبلات المبينة على الأهواء النفسية، ومن أفدحها أن أمور دينهم موكله إلى حبرهم الأكبر يزيد فيه ما شاء برأيه وينقص ما شاء"

1 . وكذلك الفقيه محمد بن عبد الله الصفار التطواني الذي زار باريس عام 1845 قدم صورة أخرى عن أوربا يذكر فيها المحاسن، رغم وجود بعض المفردات المورثة والتي تدخل ضمن تكوينه الثقافي والعقائدي مثل عبده الأوثان والقائلين بالأبوة والنبوة.

إن هذه النظرة الممتدة حتى بداية القرن 19م لم تتصف أوربا رغم التطورات التي كانت شهدا على المستويات المتعددة، خاصة السياسية بفعل الثورة الفرنسية والاقتصادية بفعل الثورة الصناعية، إلا من خلال كتابات من زاروا أوربا وتعرفوا عليها أي إحداث تصحيح لنظرة المغاربة نحوهم، فلم يعد الأوربي عند هؤلاء كما صورته الكتابات السابقة، وكان ابن العنابي الجزائري يرى أن الأوربيين إذا اخترعوا عتادا حربيا لأبد للمسلمين من تقليدهم في تعلمه ويحذقون، بل حتى أن سبقوا في ذلك الاختراع نفسه، وفي ذلك يقول "وأنهم (يعني الكفار) وإذا استدعوا من أدوات الحرب وصانئعه أمرا له موقع لا تؤمن من استطالتهم به علينا"2. كما كان حمدان خوجة صاحب المرأة يرى الحكم العثماني أفضل بكثير ممن الحكم الأجنبي لبلادهم.

كما قال الوفرائي مثلا في بداية القرن 18م في مسالة الاستعانة بالنصاري وما سمعته من قول العلماء رضي الله عنهم في الاستعانة بهم إنما هو بان تجعلهم خدمة لازيال الدواب ونحو ذلك لا مقاتلة3. وكذلك ما ذكره حسن الفقيه في يومياته عندما بلغه احتلال فرنسا للجزائر عام 1830 "واخبرونا بأنه في يوم 24 ذي الحجة 1245هـ 1830 قدموا شقوف الفرنسيواي الى الجزائر، وأطلقوا المدافع على سيدي فرج...

1 احمد بن محمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق للمهدي البوعبدلي، وت ا ش د، قسنطينة، 1973، ص32

2 ابو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، موقع للنشر، الجزائر، 2011، ص 65.

3 بوغفالة ودان، المرجع السابق، ص31.

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحى في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

وبعده هاجموا عليهم العربان ونصرهم رينا على الكفار¹. وكذلك نجد تلك المفردات والمعاني من قبل عند ابن سحنون الراشدي تشابهت عندهم التفاسير والنظرة للآخر .

المبحث الثاني: تغير النظرة المغاربية عن الحضارة الغربية والدول الاوروبية

في هذا المبحث نتطرق على الى تغير النظرة المغاربية عن الحضارة الغربية والدول الاوروبية من خلال اهم المعالم التي ساهمت في هذا التحول في وجهة النظر تجاههم من غرب كافر متخلف الى بلاد يمكن تقليدها واخذ منها سبل التمدن والتقدم خاصة فرنسا.

المطلب الاول: التاثر بالغرب من خلال الرحلات المغاربية:

كان على المثقف المغاربي وخاصة الذي تعرف عن قرب بأوروبا خلال القرن 19م أن يغير بعض المفاهيم والرؤى عن أوربا، لكن دون التأثير على مبادئه ومنطقاته المعرفية المستمدة من التاريخ والدين وانتمائه الحضاري فصورة الأوربي الكافر بقيت عالقة في أفكارهم وأذهانهم، رغم ذهولهم بالمدينة الأوربية وتطوراتها الحضارية، وكانت الرغبة الى الاصلاح جامحة لان الجمود العقلي الذي أصاب العقلية الاسلامية مما جعل انتشار الافكار الاصلاحية شبه مستحيلة، لكن هذه الصيحات الاصلاحية الخافتة بقي صداها ينتقل من جيل لآخر².

فالفقيه الصفار التطواني قال عنهم أنهم أهل حضارة حقيقية، ومن الأمور التي توقف عندها في وصف أهل باريس حرص والاستقامة والتفاني في العمل، "ولقد رأينا في طريقنا هذه ما يشهد شهادة حق لأهل هذه البلاد بالاعتناء التام والتبصر العام بأمور دينهم وإتقان تدبيرهم ويقول أيضا فهم جادون كل الجد في عمارة الأرض بالبناء والغرس وغيره لا يسلكون طريق التساهل ولا يصاحبهم فيه تغافل قط"³.

كما تطرق الصفار إلى المرأة ودورها الفعال في المجتمع يقول ولأهل باريس حرص تام على التكسب رجالهم ونسأؤهم، لا يتقاعدون عنه ولا يتكاملون والنساء مثل الرجال في ذلك وأكثر، ويقول عن أمور أخرى، وعندهم من أنواع الفرجات العجب العجائب لكن ذلك لا يلهيهم عن اشغالهم ووصفهم بالذكاء والفتنة وصواب الرأي والصدق والنظافة والولوع بالحدثة والتجديد⁴.

حسن الفقيه، اليوميات الليبية، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، مركز دراسات ، طرابلس، 1984¹، ص 31 .

² - المهدي بوعبدلي، عبد الرحمان الاخضري وأطوار السلفية في الجزائر، الأصالة، ع53، صفر-محرم 1398-جانفي 1978،

ص26.

³ محمد داوود، تاريخ تطوان، مج منش، جامعة الملك محمد الخامس، الرباط، 1962، ص300.

⁴ بوغفالة ودان، المرجع السابق، ص33.

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحى في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

أما حمدان خوجة الذي تكررت رحلاته إلى أوربا فكانت نظريته قد عبر عنها في رسائله العديدة وفي كتبه يقول " ...القوى الأوربية التي تهتم بتحرر الشعوب وإطلاق سراح الأسرى"¹، وفي ليبيا شخصية حسونة الدغيس الطرابلسي الذي أقام في أوربا مدة طويلة خلال القرن 19 فكان ينظر إلى المجتمع الأوربي بأنهم شعب الحضارة "لقد شجعني والدي على السفر إلى أوربا للاطلاع على حضارتها وهي حضارة غير معروفة بالنسبة لبلادنا" وتلنقي نظرة المغاربة مع نظرة المشاركة إلى أوربا خلال القرن 19 في تطورها وحضارتها، مع تغيرات بسيطة لبعض المؤلفات التي تقبلت الآخر أوربا وأعجبت بانجازاته وأحداثه إذ اهتمت به وتعرفت عليه، حتى أنها دعت إلى التقرب منه لاكتساب معارفه و نظمه كما حدث مع التونسي خير الدين باشا والجزائري ابن العنابي في مؤلفه السعي المحمود في ترتيب نظام الجنود أو حتى الاهتمام بالتاريخ الأوربي لذاته والرغبة في تدوينه وتعتبر هذه قواعد عامة لم تشبه معظم العلماء والمؤرخين منها آنذاك.

كما نجد بيرم الخامس أكثر تنظيما وتوضيحا من أقرانه في وصف أوربا ومجتمعها خاصة تاريخها، فمحمد بيرم الخامس 1889/1840 احد رجال الإصلاح بتونس عاصر الوزير الأكبر خير الدين وأيد في إصلاحاته التي جاء بها، تولى عدة مناصب منها رئاسة جمعية الأوقاف والمطبعة الرسمية تجول في مختلف بلدان أوربا والمشرق وتسجل فيها مشاهدات وانطباعات جديرة بالاهتمام، له كتاب صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار، فهو يقول " لا يخفى إن سائر أوربا كانت في العصور السابقة على جانب عظيم من التوحش فلذلك كانت تواريخها القديمة مجهولة"²، وقد تتبع النهضة الأوربية في كتاباته يقول ذلك أن أهالي أوربا استفادوا من العلوم التي باللسان اللاتيني واليوناني كما استفادوا من الأمة العربية في المغرب بمجاورتها في الأندلس فاخذ عنها العلوم الرياضية وتهذيب الأخلاق والجغرافيا، عندما تدخلت فرنسا لإنشاء مستشفى بتونس عن طريق الباي الخاص (ماسكرو) ذكر أن ذلك لتخليص سكان الايالة من الشرور و الأمراض والحقا بركب المدينة الحديثة³.

كما كان يعتقد بان المسلمين بإمكانهم أن يستفيدوا من الجانب الخير فيهم وعن سفره إلى بلاد غير المسلمين وعلاجه من قبل الأوربيين، يفرد العديد من صفحات كتابه لتوضيح أن السفر للبلدان الأجنبية لا تخالف الشريعة الإسلامية، بل هو وسيلة ضرورية للاعتبار بما بلغته هذه الأمم من حضارة ومدينة راقية لذلك نجده قد افرد ثلثي مقدمة كتابه للسفر تفسيرا وتحليلا وتعليلا وفي الأخير خلص أن السفر إلى ارض الغير مسلمين جائز كيفما كان القصد على شرط الأمن وجوز النزول بمنزلهم واكل طعامهم والجلوس على

¹ HAMDAN khodja, Le MIROIRE ,INTRODUCTION, D'abdelkader djeghloul, Sindbad ,paris, 1985 ;p221.

² بوغفالة ودان ، المرجع السابق، ص37.

³ حفظة بن دحمان، رأي بيرم الخامس في الاحتلال الفرنسي للجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر، ص91.

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحي في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

مأدبهم، ومشاركتهم أفراحهم ودخول كنائسهم وزيارة متاحفهم وحدائقهم، والتفرج على مسارحهم وتذوق موسيقاهم واطلاع على أفكارهم ومبادئهم وأيديولوجيتهم، ولم يجد في كل ذلك ما نعا شرعيا أو حرجا أدبيا مدام متمسكا بهويته الإسلامية وتقاليدته الشرقية.

لذلك نجد بيرم الخامس بذلك قد تجاوز إشكالية عصره حول الأخذ من الحضارة الغرب المادية أو عدم الأخذ بها، إلى إشكالية أخرى تتعلق بالاحتكاك بالغرب في عقر داره والانفتاح على ثقافته والانسجام مع عاداته من غير الذوبان فيه، وهو بذلك يفتح قنوات الحوار بين الشعوب والحضارات للاستفادة من تجارب الآخرين واستثمارها فيما يفيد الأمة الإسلامية مع اخذ الحيطة والحذر من مساوئ مجتمعاتهم، فعندما يستقبح جانبها ما في الغرب يتبعه بالافتخار بتعاليم الدين الإسلامي فهو يرى في الغرب التقدم المادي ولكن ينتقد في كتاباته من جانبه الروحي.

كما انه أشاد بالوحدة السياسية لإيطاليا ونوه بحب الفرنسيين لوطنهم وتضحيتهم من اجله يقول إنهم يؤثرون الإقامة بوطنهم عن الإقامة الدائمة بغيره، فان رآهم أجنبي يقومون عليه بيد واحدة، وانبهر باحتفالاتهم في عيد الجمهورية 1878 وقام بنقل نص نشيد المارسييلاز كاملا¹، وقد ذكر أن الاستعمار الأوربي هو نتيجة للتطور الصناعي الأوربي، تقوده الدول الأوربية الكبار بمالهم من القوة واتساع نطاق التمدن صار لهم التدخلات في كل ما يسمى حقوقهم من سياسات العالم، وتختلف الدول الضعيفة هو نتيجة لعدم مسايرة الكبار وقال في الاحتلال فرنسا لتونس "كل مملكة جاورتها ولو مستعمراتها تتطلب النفوذ لديها ولو بالاعتبار في ما إذا كان الجار ذا شوكة وشان، أما إذا كان ضعيفا في القوة والإرادة فإنها تلتقمه مهما سمحت لها الفرصة شان طبيعة الدول القوية ودونك ما وقع في تونس هذه السنة 1881، وتكن الدول التي لها أطماع في تونس فلن تكون أكثر خطرا من فرنسا لا هذه الأخيرة لن ترضى بابتلاع الأراضي الإفريقية الواحدة تلو الأخرى².

ويعتبر خير الدين باشا (1822/1890) من خلال كتابه أقوم المسالك أهم من استوعب التاريخ الأوربي وفهم حقيقته، إذ حلل النهضة وذكر مراحل التمدن تاريخيا كما تطرق إلى التعليم في فرنسا وإلى المكتبات بايطاليا ويقول "والحرية بهذا المعنى موجودة في جميع الدول الأوربية إلى الدولة البابوية والدولة المسكوتية لأنها مستبدتان وهما كانتا نواتي أحكام مقررّة إلا أنها غير كافية لحفظ حقوق الأمة لان نفوذها موقوف على إرادة الملك"³.

¹ حفيظة بن دحمان، المرجع السابق، ص120.

² نفسه، ص 124.

³ خير الدين التونسي، أقوم المسالك في معرفة احوال الممالك، تحقيق المنصف الشنوفي، ط2، م و ك، الجزائر، 1986، ص 199.

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحى في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

ومن الشخصيات الأوربية التي اشتهرت في كتابات المؤرخين والعلماء المغاربة الاباطرة الرومان مثل قسطنطين (337/306م) والإمبراطور شارلمان (814/768) ملك فرنسا المعاصر لهارون الرشيد، وبعض ملوك انكلترا واسبانيا مثل فيليب الثاني وملوك فرنسا مثل شارل العاشر ونابليون الثالث، والعديد من الشخصيات الأخرى.

ك ما نجد ابن العنابي يخصص الجزء الثالث من كتابه السعي المحمود في ترتيب نظم الجنود يجوز تعلم العلوم الآلية من الكفرة، إذ قام بتفسير آليات اكتساب القوة الحربية لردع الأعداء والخط من شأنهم إذ يقول في الأمور الحربية "تعني بها كل ما أنتج قوة محسوسة أو معقولة على دفاع الأعداء وإرهابهم واغاضة نفوسهم وإتاعابهم، وكل هذه المعاني أمور شرعية لان فيها إذلال الكفرة وغز الإسلام، وانه المقصود الأعظم من شرعية الجهاد"، بذلك يربط بين القوة ونصرة الدين وحكمة الجهاد ولخصه في أن كل ما يفيد المسلمين ويرفع من شأن الدين فهو شرعي ولو جاء من الأوربيين، فكل ما يفيد منفعة لها تعلق بإعزاز الدين ورفعة أهله ، مما اشتمل عليه النظام المستجد للكفرة من ترتيب العساكر تصنيفهم، وحصر أعدائهم وتعدد قوادهم وعرفائهم ولتسويم أصنافهم وكبرائهم، بخصوص لباس أو علامة وتضييق ملابسهم وتقصيرها، وتعيين مواقعهم وعملهم وتخصيص كل فريق براية أو ولاء.

ويواصل ويقول "ثم تدريبهم على عمل الحرب لتعليمهم كيفية الرمي والطعن والضرب، وغير ذلك مما يقتضيه أمر الحرب من تصنيف وإغارة واجتماع وافتراق وإقدام وإحجام وكر وفر وركوب ونزول وظهور وكمون وتحريض وتثبيت، ورفع صوت وخفضه ورد منهزم وحراسة وغير ذلك مما قد تدعوا إليه الحاجة فهو أمر مشروع¹.

كما كان يرى انه لا بد من تجاوز الأوربيين في اختراعاتهم ونظمهم وليس فقط تقليدهم حيث يقول "لزمنا بذل الوسع في تعلمه وإعداده لهم والاجتهاد في مجاوزتهم فيه، وانه إذا لم يكن استعلام ذلك إلا من قبلهم، وجب استعلامه منهم لأنه مستطاع لنا وانه ماذا اعدوا لنا صواعق البارود فاعدنا لهم القسي والمنجنيق اللذين صارا اليوم كالشريعة المنسوخة، أو اقتصرنا على السيوف والبندقيات أو شمروا لنا الثياب فاعدنا للقائم الثياب المجرة والاكمام المطولة والعمائم المكبرة، لن نخرج عن عهدة الأمر ولزمنا الإثم والعار فلا غرض الشارع حصلنا ولا سبيل الرجولية سلطنا².

لم يجد ابن العنابي فتوى صريحة تعلم العلوم الآتية من الكفار، لكنه يبدي رآه في ذلك لعدم إجاده لأية أو حديث صريح حول ذلك، وذلك إلى نصوص عدة منها جواز تعلم اللغات من غير المسلمين مثل

¹ابوالقاسم سعد الله ، المرجع السابق، ص64.

² نفسه، ص 65.

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحى في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

حديث تعلم السريانية الموجه لزيد بن ثابت، لان كتابا كانت تأتي للرسول بها، فتعلمها الصحابي في سبعة عشر يوما كما تعلم العبرية في نصف شهر، واستنتج ابن العناني من ذلك جواز تعلم الكتابة أيضا من غير المسلمين، "جواز تعلم العلوم الآلية التي لها منفعة في أمر الدين من الكفار وتعدى ذلك إلى كل معرفهم فغير ذلك من معارفهم الصناعية التي لها موقع في أمر الدين كالذي نحن فيه بالأولى ومن هذه المعارف كالطب والفلسفة.1

المطلب الثاني: فرنسا في كتابات الرحالة المغاربة:

تطرقت الكتابات المغاربية إلى وصف أوربا وفرنسا بالتحديد لكثرة الرحلات نحوها، حيث ذكر بيرم الخامس عن أصول فرنسا وقال "أما سكانها فاصلهم القديم من قبائل مختلفة وردت إلى هناك ثم وفد عليهم الرومانيون ثم هجمت عليهم قبيلة الإفرنج الآتية من الشرق، واستوطنت قبل ذلك في البلجيك ثم تغلبت على قبائل فرنسا واختلط نسل الجميع واتحد باسم الإفرنج، ثم حول الفرنسيين وصار الآن جنسا واحدا وهو الفرنسيون كانت هاته المملكة تسمى قديما غاليا، و هكذا استطاع بيرم الخامس أن يقدم معلومات دقيقة عن ملوك فرنسا وحروبهم.

كما اهتم المغاربة بوصف باريس ومعارضها الدولية والوفود المشاركة في سنة 1878-1889-1900 سجلوا من خلالها الانبهار والإعجاب، فابن الصيام قال "وجدتها أحسن مما وصفوها الوصفون لكنهم اتخذوا موقفا حادا من الاحتلال الفرنسيين للجزائر عام 1830 ، وكتبوا عن ذلك وعن ثورة جويلية ضد الملك شارل العاشر الذي وصفها حسونة بالثروة السعيدة، كما ذكر الوزير ابن أبي الضياف وهو من زاروا باريس في النصف الأول من القرن 19م تعطش الأوربيين للحرية إذ يقول " لان شريعة المسيح مقصورة على العبادة... وتركت ملوك الدنيا وشانهم من مصالح ديناهم ولهذا تارة يكون القانون عن طلب الرعية بحروب تجري فيها أودية الدماء، كما وقع في فرنسا لما في طباع أهلها من الالتحام والتعصب وحب الحرية الممزوج بدمائهم، حتى أفرطوا فيها إفراطا لا داعي له ولذلك يأنفون من الملوك كما هو شاهد بالأقطار الافرنجية وغيرها.

ويسترسل احمد ولد قاضي في وصف باريس ويقول "المدينة العظمى باريس التي اجتمع بها ما افترق في غيرها من الحسن والإحسان وضمت ما تشتهق إليه الأنفس، وترغب في سماعه الأذان فاستقبلها أهلها بالسياسة الدالة على المودة، ذو وجوه كثغر الصباح سميحة وعقول ثابتة صحيحة وصدور سالمة سميعة، فزلنا بأحسن المنازل الرفيعة مفرشة بالافرشة البديعة، ولم يزلوا متفقدين لأحوالنا تفقد المرضعة

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحي في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

لرضيعها ساعة بعد ساعة ملحين عليها فيما نحتاج إليه بكرة وعشية، وموائدهم للاضياف منصوبة وعوائد برهم لكل طارق موعوبة فقل ما شئت فيهم من مديح تجدهم ما نطق المديح¹.

ويقول سليمان بن صيام "دخلنا إلى مدينة باريس وجدتها أحسن مما وصفها الوصفون ، أما شكلها فمستطيل هكذا يظهر وأما ضخامتها فهي من أعمر مدائن الدنيا، والتحقيق أن سكانها مليون ومائتي نفر وهي من أعظم مدائن الإفرنج الآن، و أهل باريس فهم مختصون من بين الناس بذكاء العقل ودقة الفهم وفياض الذهن، وليسوا بالمقلدين في الأمور اصلا بل يطلبون دائما إدراك معرفة أصل الشيء والاستدلال عليه، حتى إن عامتهم يعرفون القراءة والكتابة ويدخلون مع غيرهم في الأمور العميقة كل إنسان على قدر حالة فليست العوامل بهذه البلاد كعامة غيرها من البلدان².

كما محمد السعيد بن علي الشريف في رحلته بتاريخ 1853 إلى باريس يقول "أنها أعمر من مدائن الدنيا وأعظم مدائن الإفرنج بأسره، وهي كرسي بلاد الفرنسيس و قاعدة ملكه وبوسطها نهريْن احدهما سمي نهر السين والثاني قبلن وأهلها مختصون من السين كثير من أهل افرنصة بذكاء العقل ودقة الفهم. و أخيرا يقول المزارى "وأشهر مدنها باريس وهي موضوعة على واد سين محصنة بغاية التحصين فأسوارها صحيحة عريقة وفنادقها كثيرة غميقة³

خاتمة:

إن نظرة معظم العلماء المغاربة إلى الأوربيين الذين عاصروهم خلال الفترة الأولى من القرن 19م، هي من نظرتهم إلى التاريخ الأوربي المعتدي الصليبي وان الإسلام والمسلمين لهم الفضل الأول عليهم، وأنهم الكفرة المعتدين، لكن ابتداء من النصف الثاني للقرن نفسه تغيرت النظرة مع تكرار الرحلات إلى أوربا، إذ تعرفوا على المدنية الغربية واحتكوا بحضارتها ونبوغ شخصياتها التي لعبت الأدوار الأولى في نهضتها الثقافية والعلمية، وشعر من خلالها المغاربة بالمفروقات الشاسعة بينهم وبين الآخر مما استدعى ضرورة محاولة اللحاق بركبهم وتبيان مستوى ضعفهم هم، وهذا ما حاولوا إبرازه من خلال كتاباتهم ونظرتهم إلى الآخر ومن إن البعثات الدراسية إلى الخارج ييسرت عملية اندماج المسلم في المدنية الغربية، ومكنته من الاطلاع على ديانات مختلفة وحضارات متعدّدة، وأكسبته شيئا من أساليب الحياة الغربية، ومن الاتجاه الغربي في التفكير والعلم والسلوك وما إلى ذلك هنا ظهر فكر اصلاحي تجلت معالمه في بداية القرن العشرين.

المراجع باللغة العربية :

¹ احمد ولد قاضي، الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير اهل البادية، جريدة الميشر، ع1973 الجزائر، ص2.

² سليمان بن صيام، رحلة السيد سليمان بن صيام إلى بلاد فرنسة، ع 116، الجزائر ، ص2.

³ نفسه ص ص4.

تثر الرحلات الى اوروبا في ظهور الفكر الاصلاحى في البلاد المغاربية خلال القرن 19م

1. ابن منظور، لسان العرب، مج2، دار صادر للنشر والتوزيع، بيروت، دت، ص:517.
2. احمد بن محمد بن سحنون الراشدي، الثغر الجمانى في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق للمهدي البوعبدلي، وت اش د، قسنطينة، 1973.
3. احمد ولد قاضي، الرحلة القادية في مدح فرنسة وتبصير اهل البادية، جريدة المبشر، ع1973 الجزائر.
4. خير الدين التونسي، اقوم المسالك في معرفة احوال الممالك، تحقيق المنصف الشنوفي، ط2، م و ك، الجزائر، 1986
5. حسن الفقيه، اليوميات الليبية، تحقيق محمد الأسطى وعمار جحيدر، مركز دراسات، طرابلس، 1984.
6. سليمان بن صيام، رحلة السيد سليمان بن صيام إلى بلاد فرنسة، ع 116، الجزائر.
7. ابو القاسم سعد الله، المفتي الجزائري ابن العنابي، موقع للنشر، الجزائر، 2011،
8. ودان بوغفالة، الثورة الفرنسية في الاستغرافيا المغاربية، مكتبة الرشاد، الجزائر، 2004.
9. حفيظة بن دحمان، رأي بيرم الخامس في الاحتلال الفرنسي للجزائر، وزارة الثقافة، الجزائر.
10. محمد داوود، تاريخ تطوان، مج منش، جامعة الملك محمد الخامس، الرباط، 1962.
11. مزنة بنت مزعل عبد الله العيد، حماية الإسلام للعقل وأثره في تحقيق الأمن الفكري، مجلة كلية الشريعة والقانون بنفها الأشراف-دقهيلة، مج17، ع1، ددن، 1436هـ، ص 3.
12. عليوان أسعيد، فلسفة ابن باديس في الإصلاح والمفهوم، مجلة المعيار، العدد 42، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، 2017م، ص: 2.

14-Hamdan.khodja,Lemeroire ,introduction,d'abdelkader
djeghloul ,Sindbad ,paris,1985.